



أقصومة من هيريل دافونزيو

سنسناوس^(١)

مأساة عاشق مجبول

للاستاذ دريني خشبة

—>>><<<—

كان يتشى كأنه غصن بان؛ وكان نحيلاً معروفاً في غير طول،
وله ليدّة تبهدل كناية من أشجار الكستناء فوق كاهله
وكتفيه، ثم تحوى ذوائبها وتندردن حين يبعث بها الهواء،
فتكون ككُرفِ الفرس. أما لحيته ... فهودية كثة مفرجة،
غير مُحَلّقة، تعلق بها دائماً نثار من القش ... أما عيناه فسادرتان
ترنوان أبدأ إلى قدميه الخافيتين! فإذا حدث أن رفعهما إلى أحد
فإنهما تقذفان في قلبه الدعر، بما ركب فيهما من الغاز وأسرار...
فهما مارة تشفان عن بله، وتبان عن عته؛ وتارة أخرى
تتأججان بنيران حامية ككيران الحسى ... ثم تنطفئان بنثة،
فتراهما حائلتين آسنتين كياه المنفقع ... فإذا لمح بهما خطفتا
كسيوف طليطة^(٢)!

وكانت له (چاكتة) حمراء يلقيها على كتف واحد كما يلتفع
الأسبان عبااتهم في كبرياء وزهو، فكان إذا مشى بدح في
عظمة وجلال

ويدعوه الناس سنسناوس، ويقولون إن به لونه أصابته إثر

(١) من الأنايس التي يبدو فيها دافونزيو أديب إيطاليا العظيم مصوراً
أكثر مما يبدو روائياً

(٢) نسبة السيوف إلى طليطة نسبة أندلية مستعدة، وعرب الشرق
ينسبون إلى الهند أو إلى اليمن فيقولون هندوانى ويماى ومهند ويماى،
وعجيب بقاء النسبة الأندلية في الأدب الإيطالي إلى اليوم

حب خانه فيه محبوبه، فلم يملك إلا أن يطعمه، وعمضى على وجهه
في الأرض حيران

وكانت سنه عند ما عرفته ستا وسبعين، بينما كنت أنا في
الثالثة عشرة ... وقد رأيته تغلبنى ... وكان اليوم قانظاً، والماء
ينمر الميدان، والأرصفة تنقد بحر الشمس، ولم يكن نمة مخلوق
غير كلاب قليلة سائبة ... ولا صوت إلا جعجة الطاحونة القرية
وكنت لا أمل أن أف نصف ساعة ألاحظ سنسناوس

من وراء ستار النافذة، وهو يمشي متثاقلاً غنائلاً، وقد اشتد
قيظ الظهيرة؛ وكان يذلف أحياناً نحو الكلاب في هدوء ومهل
حتى إذا ظن أنها أمته، التقط حجراً وحذفها به ثم اعتدل
وولاهها دبره، كأنها يومها أنه لم يسها بأذى ... وقد تجتمع
الكلاب حوله فلا تنفك تبصص بأذنانها ... ويفتر هو باسم ...
ثم يضحك ضحكات بائسة ... فلا أملك إلا أن أضحك أنا أيضاً!
وتشجبت يوماً فأطلت برأسى من النافذة، ثم هتفت به:
« سنسناوس! » فاستدار حوله، حتى إذا بصرتي تبسم ضاحكاً،
فقطفت قرنفة جميلة من طاس أزهارى وأرسلتها إليه ... ومنذ
ذلك اليوم، ونحن صديقان ... وأى صديقين!

وقد سماني « كيرلى لوكس! ». ففي أمسية يوم سبت من
شهر يوليو بينما كنت واقفاً على الجسر الجميل أرقب سفائن الصيد
عائدة أدراجها، ومن خلفها الشمس الرائعة تصبغ السحاب
بالذهب، وتوشى حواشيه بالقرمز، وتنصب بالنهر في لجة البحر
ذوباً من اللؤلؤ واللجين ... في حين تنعكس العُدوتان،
وما نأ فوقهما من قصب وغاب، وما يسق عليهما من حور
وشاهبلوط، في مائه العذب، فتكسوانه حلة من سندس
وإستبرق!

وكانت الزوارق تلتق مراسيها في بطاء وتتضام على رؤيد،
ومرُعها البرتقالية تصطفق وتتكسر، فترسم عليها النقوش

وانثرت ببتة من أزهار الخشخاش فسقطت في الماء ، فجعل
يتمهما بنظره حتى غابت ، ثم أنشأ يقول : « إنها ذاهبة ... ذاهبة
بعيداً ! » وكانت نبرات الأسي تنكسر في أطراف صوته ، كأنما
فقد شيئاً عزيزاً عليه !

وصمتنا لحظة ، ثم سألته : « ألا تخبرني ما بلدك يا سنسناوس ؟ »
لكنه التفت عني وأشاح ، ثم مد بصره في السماء الزبرجدية
الصفانية ، حيث ذهببت الجبال في السماء كالجارية التي تنط وتتناهب ؛
وكان الجسر البعيد الممتد فوق النهر يُقطع السماء إلى صور جميلة
بارعة ، وقد أخذت ظلال الشاطئ الأخضر المنكسة في مائه
تتحول إلى لون داكن قاتم ، يختلط بأهازج الصيادين ونكاتهم
المرحة الساذجة

وأشرقت أسارير صاحبي قليلاً ، ثم أسرع يقول :
— أجل ... لقد كان لي بيت أبيض ، وكانت له حديقة
صغيرة تنمو فيها أشجار الخوخ ... وفي السماء ... كانت تریزا
تأتي إلى ... جميلة حسان ... مفتان ! ... عيناها ... ولكن ...
هو ! هو !

ثم صمت فجأة ... لأن الهواجس السوداء كالحفافيش طافت
برأسه فجأة ... وانظفاً البريق الذي كان يشع من عينيه فصارتا
غامبتين قاتميتين !

يبد أنه لم يلبث أن انفرجت أساريره ، وأشرق وجهه ...
ثم لوى عنانه ، وذهب عني ، وهو ينشد ويفني :

Amoi, Amoi, aecirecheme sa rame.

وهو غناء لا أدري ما ذا كان يقصد به !

ولقيته بعد ذلك مرات ، وكنت كلما رأيته ماراً بمنزلنا دعوته
لأعطيه شيئاً يأكله ، أو يقبله به ، وأعطينته مرة دريهمات كنت
قد أخذتها من أمي ، فأكدت أضعها في يده ، حتى نظر إليها
هازناً ساخراً ، وردّها إلي في امتعاض ، وولي مدبراً ... وفي
المساء لقيته عند آل پورتانوا ، فتقدمت إليه قائلاً : « سنسناوس !
اغفر لي ... و ... اعف عني ! » ولكنه هام على وجهه ، واختفى
في العتبة

وفي صباح اليوم التالي ، وجدته ينتظرنى قريباً من منزلي ،
فلما رأيته تبسم ابتسامة محزونة ، ومد إلي يده الواهية بيافة

المرية ، فتبدو غرايب سودا ... وقد بدأ الصيادون يزلون
أسماءهم من زورقين كبيرين ، فرحين جدلين بما رزقهم الله ،
منشدين متفنين

وتلفتُ حولي فجأة فرأيت سنسناوس واقفاً حيالي والعرق
يتفصد من وجهه ، وقد خبأ شيئاً في يده وراء ظهره ، فدوت
إليه يدي المذعورة المرتجفة ، وناديت به : « أوه ! سنسناوس ! »
ورفت على شفثيه ابتسامة ساذجة كابتسامة الطفل ، ثم مد إلي
يده وفيها باقة رائحة من أزهار الخشخاش ، وسنابل القمح ،
فاختلطت حمرة (أبي النوم) بذهب البر ، حتى ما تعالكت أن
صح : « شكراً لك وألف شكر ! ألا ما أجل وما أبهى ! ! »
وبدلاً من أن يرد علي ، فقد أرسل أصابعه فوق جبينه ووجنتيه
ليزح العرق ، ثم حلق في يده وحلق في ، ثم نحك من أعماقه
نحكاً رقيقاً باكياً ... وقال : « لقد وجدت تلك الأزهار
الأرجوانية نامية وسط حقل من القمح ، فأحببت أن أقطفهن
لك ... ألا ما أجل وما أبهى ! ! لقد قطفتهن لك ، ولم أبال
الشمس التي كانت تصب نيرانها فوق رأسي ! »

وكان يتكلم في هدوء واستسلام ؛ وكان يرسل الكلمة
ويستأني ، ثم يرسل الأخرى ويستجم ؛ وكان يبدو عليه النعب ،
لكنه كان يحاول وصل كلماته حتى لا يفلت منه زمامها ... وكان
يبدو كأن ألف فكرة تردحم في رأسه ، وألف صورة من صور
ماضيه المؤلم تترك تفكيره ... فكان يستذكر منها الصورة
والصورتين والثلاث ، ويترك الباقيات تتفرق كسرب من
اليعاسيب ... وكنت ألح ذلك في عينيه ... فيزداد تفرسي في
وجهه الذي كان يبدو لي جميلاً رائماً ... وكأنما لحظ ذلك مني ،
فالتفت إلى الزوارق فجأة وقال : « أنظر ... الشرع ! ما أجل
الشرع ! شرعان رائعان ! أحدهما في الماء والآخر في الهواء ! »
أى أنه لم يكن يعرف أن الشرع الذي في الماء ما كان إلا صورة
منكسة ؛ ولقد حاولت أن أفهمه ذلك ... وقد أطلت في الشرح
إلا أنه كان يبدو كالتاهل عما أقول ... وكانت كلمة « شفشاف »
تصدمه ، وتفسر في أذنه

وتتم بهذا النداء : « ديا فانوس ! ! » ... ثم تبسم ، وعاد
يحلق في الشرع العجيب !

بانمة من أزهار المرغريت ... وكانت عيناه دامتين ، وشفتاه
مرتمشتين ... مسكين ! لك الله يا سنسناوس !

ومرة أخرى ، بينما كنا جالسين في طرف الطريق المروش
بالشجر ، في أواخر شهر أغسطس ، والشمس الفاربة تختفي رويداً
وراء الجبال ، والأصداء المختلفة تتجاوب في جنبات السهل القار
المهادي بين لحظة وأخرى ... وحواشي الأدغال الصنوبرية تبتمد
وتبتمد حتى تنتهي في ظلام البحر ، وقد أخذ القمر النحاسي
يزرغ في هواده وبطء خلال السحب العجيبة الرائعة ... حينئذ ...
نظر سنسناوس إلى القمر ، وحدق فيه بصره ... ثم أخذ يتمتم
ومجمجم ... ويقول : « أنظر ... إنك تستطيع الآن أن تراه ..
وليس في وسعك الآن أن تراه ! أجل ... قد يمكنك أن تراه
الآن ... وقد لا يمكنك قط أن تراه !

وظل برهة يتأمله ثم عاد يقول :

« القمر ! إن له لمَينين وأنفاً وفماً مثلنا نحن البشر ! !

ومن يدري فيم عساه يفكر ... من يدري !؟ »

ثم شرع يغني أغنية سَجَّواء من كاستلامير ... أغنية
طويلة كثيرة الرفع والخفض ، مما يتفنى به أهل تلك المضاب في
ليالي الخريف ، في عقايل الحصاد .. وبعد لحظات لحنا في ظلام
البعث مصباحي قاطرة مقبلة ، كأننا بتأججان في خمة النَّسَق
كما تتأجج عينا هولة ... وقد مرَّ القطار وهو يهزم كالرعد فوق
الجسر ، ويرسل صفارته الهائلة ، وينثف دخانه القاتم ... وبعد
لحظة غاب في الأفق ، وساد الصمت ، وعاد الهدوء إلى الكون
وهب سنسناوس واقفاً فقال :

— إذهب ... إذهب ... انطلق بعيداً ، أيها التَّنين ، بما

أجج الشيطان في صدرك من نار ومن نُحمَّ ! ! »

ولن أنسى ما حيت فزعة سنسناوس حين مرَّ بنا القطار ..

فلقد رعد فجأة ، وجرجر في هدوء الطبيعة ، فأيقظ صاحبي
المجنون من تأملاته وروعه ... فلما عدنا أدراجنا إلى القرية ...
لم يصح من أحلامه قط ! !

وذهبنا مرة معاً في أوائل يوم جميل من أيام سبتمبر إلى

سيف البحر ... وكانت لانهائية المساء الأزرق العميق تضطرب

تحت يفضة الأفق التي كانت تلتهم بأمواء السماء ... وكانت
قوارب الصيادين تهادى فوق العباب الزاخر ، مَسْمِي مَسْمِي ،
كأزواج من طير عظيم مختلف أنواعه ، وقد نَشَرَتْ أجنحتها
الصفراء والقرمزية ... ومن ورائنا نهضت كشيان الرمال
الشاحبة ، الممتدة فوق الشاطئ القاتم ، حتى تتصل بسندس
النَّبت من وراء

وانطلق سنسناوس يحدث نفسه في صوت حنون أخاذ ،
كالذي تولاه طائف من الدعمر والدهش : « البحر ... الخضم ...
الأزرق ... خضم ... خضم ... وفيه سمك كيبار تا كل
الناس ! وفي أعماقه أوركوس المهبوس في قفصه الحديدى ! !
إنه هناك يستغيث ويستنجد ، ولا من مغيث ولا منجد ... إنه
سيظل هناك إلى الأبد ... وفي المساء تمر به السفينة ... التي يرى
الموت من يراها ! ! »

وسكت سنسناوس ... ثم هب من مقامه ، فهادى نحو

الماء ، حيث وقف عند هامش الموج الذي أخذ ينضح قديمه

وبعد فهل نستطيع أن نستشف تلك الأفكار التي كانت
تحموم كالسماير في رأسه الفقير المريض المعتل ؟ أجل ... لقد كان
يتخيل دُني من ورائها دُني ... بسيدة ... نائمة ... متألقة ...
وكان يرى أطباقاً من الألوان الضطربة ، بعضها عربض طويل ،
وبعضها لامهائي ، وبعضها عجيب غريب ... ولشد ما كان يضل
إدراكه في تيه هذه الظلال التي لم يكن يدري كُنْها

وكنت أدرك هذا من عباراته التي يربطها رابط برغم ما كانت

تصور به المناظر الرائعة في سذاجة ... و ... عمق في آن واحداً

ولم يتبس بينت شفة حينما كنا نطوى الطريق عادين إلى

القرية ... و كنت أنظر إليه لحظة بعد أخرى ، فتتردد في فؤادي

هواجس شتى ... ولما اقتربنا من الطريق ، نظر إلى فجأة وراح

يقول في صوت هادي متهدج ، بعد أن قبض على يدي : « إن

لك أمّاً تنتظرك لتقبلك عند ما تعود إلى البيت ... ! »

وكانت الشمس تهبط إلى خدرها خلف الجبال في سماء صافية

وكان النهر يضطرب بأشعتها الذهبية الرائعة ... فلما قال لي ما قال

سألته بدوري ، والدموع تترقق في مقلتي : « وأنت أين أمك

الآن يا ترى !؟ » بيد أنه اشتغل عني بمصغوري جنة ، فأمنحي

ولقيها بعد ذلك بيومين ، فهرول نحوها وهو يبكي ويقول :
« أنت أوجل من شمس الضحى ا » ... ولكن الفتاة القاسية
مدت يدها البضة ولطمته في حر وجهه .
ولمحه غلمان فأحدقوا به ... ثم طفقوا يلزونه ويستمزنون به
وأخذوا يحدقونه بأعواد الكرب الملقاة في الشارع ، فأصابه
أحدهم يعود منها في وجهه ...

ونار سنسناوس ا وانطلق في إثر الغلمان كالثور المجروح ،
وأمسك بأحدهم فرفعه في الهواء ، ثم ألقي به على الأرض ...
كحزمة من الخرق !!

ورأيت رجلين من الشرطة بعد ذلك يقتادانه تحت شباكي ،
والدم يتحدر من وجهه فيضرج لحيته الكثة ، وقد حنا رأسه
توقياً لسخرات الناس به ... فبكت !! بل استخرطت
في البكاء !!

ولحسن الحظ لم يكن الفتى قد أصيب إلا بسحجات بسيطة
فأطلق سراح سنسناوس بعد يوم أو يومين ...
مسكين سنسناوس ! لقد غدا مسبوهاً شارد اللب أكثر
مما كان ، وأظلت وجهه سحابة من الحزن لم تنجل ... وشهدته
ذات مساء يمدو كالكلب في أزقة القرية المظلمة

وفي صبيحة جميلة من أيام أكتوبر ، مموهة السماء بلون
البنفسج وأضواء الشمس ، ووجدت جثة سنسناوس ممزقة
مهمسة فوق شريط السكة الحديدية مما يلي الجسر ... فهنا إحدى
ساقيه ... وهناك ... على مسافة خطوات ... ساق أخرى جرها
القطار وراه ... وظل الدم يتدفق من الرأس الذي زعت عنه
لحيته ... وقد جحظت عيناه لتثيرا الرعب في قلوب أبناء آدم ا
مسكين سنسناوس !! إنه لا بد قد ذهب هناك ليرى إلى
المهولة التي تنطلق في جوف الوادي ، فتذهب بعيداً ... بعيداً ...
كما تمود أن يقول ... التين الهائل الذي أوجع الشيطان النار
في صدره ...

— « تريزا ... »

دربني غشبية

إلى الأرض حين رأها ، وتناول حجراً ثم سدده إليهما في اقتباه
عظيم ، كأنما حسب أنه بصم بندقية وأرسله في عنف ... وطار
المصفوران كسهمين مُرَاشَتَيْن من غير أن يصيبهما أذى ...
وقال سنسناوس ، وهو ينظر إليهما يرفان إلى السماء اللؤلؤية
مفتراً عن فمه : « طيراً ... طيراً ... طيراً ... طيراً » يرددها
في تنمة متسقة أربع مرات

ولقد لاحظت تبدلاً في سلوكه منذ بضعة أيام ... وكان
يبدو كأنما تشتعل الحمى بين جنبيه ... مسكين ا ... لقد كان
ينطلق وسط الحقول يمدو ويجري ، فلا يقف حتى يهدئه التنب ،
فيستقط ويتحوى كالتمبان ، ويرقق بعينه المفزوعتين في شمس
الظهيرة الساطعة ا فإذا كان الأصيل ألقي جاكته فوق كتفه
وراح يتخلج كالأشراف الأسيان ، في خطى واسمة بطيئة مهطماً
مرة ، مستأنياً متمهلاً مرة أخرى

وقد أهملني ... ولم يمد يده لي باقات الخشخاش ولا
أزاهير المرغريت ... ولشدهما أحزنتني ذلك منه رغم إشاعات
المُجبر ، وألسن السوء التي كانت تقذح فبا بيني وبينه ...
ففي صبيحة جميلة مشرقة ذهبت لألقاه حيث تعودنا أن
نتقابل ، لكنه لم يمن بي ، ولم يتوجه بعينه نحوى ... فقلت له
وقال لي :

— ماذا يا سنسناوس !؟

— لا شيء !!

— هذا كذب ...

— لا شيء !!

— هذا كذب ... هذا كذب !!

وكنت ألح في عينيه لهباً يتأجج فيهما ، فالتفت حيث كان
يرسل بصره ، فرأيت فتاة جميلة فلاحاً ، واقفة فوق وسيد
دكان قريب

وسمته يتمم في تحرق وشغف ، وقد اصطبغ جبينه بورد
الحب : « تريزا !! تريزا !! ... » ثم تحدرت عبراته فجأة ...
لقد رأى المسكين في الفتاة الفلاح طيف تريزا ... تريزا الجميلة ...
حيثه التي خلبت له ، وخبلت عقله ، وسحرت فؤاده ا